من ثقافة القرآن

٣

مبادئ وقيم إجتماعيّة

مؤسّسة البلاغ

📖 مبادئ وقيم إجتماعيّة.
تأليف ونشر: لجنة التأليف ـ مؤسّسة البلاغ.
الطبعة الأُولىٰ: ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.
طُبع من هذا الكتاب ٥٠٠٠ نسخة في مطبعة الستارة.
ISBN: 978-964-402-202-9

الترجمة جائزة للجميع بعد عرضها على المؤسّسة.

موقع البلاغ على الانترنيت: www.balagh.com
E-Mail: info@balagh.com

بسم الله الرّحمٰن الرّحيم

كلمة المؤسّسة

﴿إِنَّ هٰذا ٱلْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَم﴾. (الإسراء/ ٩)

هبط القرآن الكريم لهداية الإنسان وإصلاح الحياة.. وأنّ الرِّسالة الّتي حملها القرآن إلى البشريّة هي رسالة الوعي والبصيرة والعمل.. وتعاملَ مع الإنسان في حركته الإجتماعيّة الواقعيّة وتركيبه النّفسي ومكوّناته الباطنيّة.. وكما جاء ليؤسِّس المنهج القويم، ويرسم معالم السّلوك الإنساني السّويّ المستقيم.. ثبّت كذلك أسس ومنهج العلاج والإصلاح النّفسي والإجتماعي والسّلوكي.. وأورد كثيراً من الظّواهر والحوادث الّتي ظهرت في المجتمعات البشريّة في فترات تأريخية عديدة كشواهد وأمثلة واقعيّة للحياة البشريّة.. وأنّ هذه الظّواهر والحوادث كان بعضها ظواهر وحوادث سلبيّة ومنحرفة وبعضها كان ظواهر إيجابيّة ومثالاً جميلاً للسّلوك الإنساني يُحتذى به..

وأوضح أنّ هذه الظّواهر والحوادث تتكرّر كلّما توفّرت ظروفها وأسبابها.. والقرآن يجري في هديه ومنهجه وحلوله على

مجتمعنا المعاصر، كما كان يجري على ما سبق من المجتمعات .. ولكي نُساهم في بناء وإصلاح مجتمعاتنا على أسس قرآنيّة، قمنا بتشخيص العديد من المفاهيم والحالات الإجتماعية، وبحثها بإيجاز.. كثقافة إسلاميّة للقارئ الكريم.. كالمواضيع الّتي عرضناها في هذا الكتاب «مبادئ وقِيَم إجتماعيّة» ..

سائلين المولى القدير أن يهدينا بنور القرآن، ويتقبّل عملنا، إنّه سميع مجيب.

مؤسّسة البلاغ

الحوار وانفتاح الأفق النّفسي

﴿قالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وٱحْلُلْ عُقْدَةً مِن لِساني * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾. (طه / ٢٥ ـ ٢٨)

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ * ٱلَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ﴾. (الشّرح / ١ ـ ٤)

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإسْلامِ وَمَن يُرِد أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّماءِ﴾.
(الأنعام / ١٢٥)

ويُثقِّف القرآن الكريم أتباعه على أهمّ عنصر من عناصر النّجاح والتأثير في التعامل مع الآخر والمشاكل والأزمات، وما يحتاج إلى صبر؛ مثل الحوار، وإقناع الآخر بفكره ومشروعه وصدق دعوته ..

إنّ القرآن الكريم يعرض عنصرين أساسين في هذا المجال، ويصطلح عليهما بـ (شرح الصّدر) و (ضيق الصّدر)، ليُعبِّر بهما عن الوضع النّفسي للمتعامل مع المشكلة وللمحاور، ويعتبر أهم عنصر من عناصر النّجاح هو سعة الأفق النّفسي الّذي يُعبِّر عنه بـ (شرح الصّدر) وتحمّل مشاقّ الحوار، والصّبر على الطّرف الآخر بما يثيره من إشكاليّات وتُهم وعبارات مؤذية، ومحاولات

التضليل والتفنّن في صرف أهداف الحوار عن مساراتها، بغية إفشال الحوار، أو الخروج بانتصار حواري مزيّف؛ لذلك يخاطب القرآن نبيّه الكريم محمّداً ﷺ بقوله:

﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾. (طه/ ١٣٠)

إنّ من المحاورين مَنْ هو صاحب الحقّ، وبيده الأدلّة الكافية، والوثائق المُقنعة، ولكنّه سريعاً ما يضغط الطّرف الآخر على أعصابه، ويستثير غضبه، فيضيق صدره، ويتعامل بعصبية وانفعال فيخسر الجولة.. بل وربّما ضيّع فرص التّقارب وكسب الأصدقاء بسبب ضيق أفقه النّفسي، ومزاجه العصبيّ في الحوار، وردوده المثيرة للطّرف الآخر.. فينفضّ عنه الأصدقاء، ويكسب الجولة الخصوم والمنافسون، ولو صبر على الحوار، وتجاوز محاولات الإثارة من الطّرف الآخر لكسب الجولة، وطوّق خصمه ومنافسه، واستمال الرّأي العام إلى جانبه..

والإتّصاف بسعة الصّدر وانشراحه صفة تُعبِّر عن التّوازن الإنفعالي، وقوّة الإرادة والحكمة في التّعامل مع الموقف.. ويُسجِّل لنا القرآن تجربة إنسانية حيّة تُمثِّل أعلى مستويات الظّاهرة.

نقرأ في دعاء موسى عليه السلام حين أمره الله سبحانه بالذّهاب إلى الطّاغية فرعون ليحاوره ويدعوه إلى الهُدى.. نقرأ طلبه من الله سبحانه أن يشرح له صدره، ويُطلق لسانه.. أن يجعل قلبه واسعاً لتحمّل إثارات الحوار، وصدماته النّفسية، ومفارقات الخصم الفكرية، وردود الطّاغية واستعلاء الطّغيان..

﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾. (طه/ ٢٤ ـ ٢٨)

ويعتبر القرآن الكريم شرح الصّدور لحمل الدّعوة، والصّبر على أذى الخصوم موهبة ومِنّة من الله سبحانه على نبيّه الكريم محمّد ﷺ، وتأهيلاً لحمل المسؤولية وتبليغ الرّسالة. لذا خاطبه سبحانه بقوله:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾. (الشّرح/ ١)

ألم يهبك الله سعة الصّدر، ورحابة الأُفق النّفسي يا محمّد ﷺ، لتستوعب مشاكل الصّراع، ويتّسع قلبك لحمل الرّسالة، مع ما فيها من معاناة، ومواجهات نفسية صعبة.

كرّر القرآن خطابه للنّبيّ ﷺ أنّك تلاقي ضيقاً وحرجاً من صراع الخصوم ومواقفهم العدوانيّة الرّافضة لخطاب الدّعوة الإسلامية فاصبر عليهم، ولا يكن في صدرك حرج، ولا يتسرّب الضّيق إلى صدرك.. فإنّك تحمل رسالة الحقّ في مواجهة الباطل، وطبيعي أن يجابهك أهل الباطل بتلك الرّدود والجدل والإشكالات المثيرة.

جاء هذا التّوجيه القرآني في قوله تعالى:

﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. (الأعراف/ ٢)

﴿فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾.
(هود / ١٢)

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ﴾. (الحجر / ٩٧)

إنّ صاحب المبادئ وصاحب الرِّسالة، ومَنْ يحمل مشروعاً سياسياً أو تغييرياً يواجه من كثير من النّاس الصّدود والرّدود القاسية، وربّما الحرب النّفسية والتّشكيك، وعليه أن لا يضيق بما يقولون ذرعاً، ولا يتردّد أو يتراجع أمام الضّغوط النّفسية وحرب الإشاعات، وأن يكون منشرح الصّدر، مسروراً بحمل رسالته ومسؤوليّته، ما دام هو على الحقّ، وعلى نور من ربِّه.. يضع القرآن أمامنا هذه الثّقافة بقوله:

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِن رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِن ذِكْرِ اللهِ أولئِكَ في ضَلالٍ مُبِينٍ﴾.
(الزّمر / ٢٢)

إنّ القرآن يُثقِّف الإنسان المسلم بهذه الثّقافة الحواريّة، ويدعوه إلى أن يكون واسع الصّدر، منشرح النّفس، لا يضيق صدره، ولا تستولي العتمة على أفق نفسه.

الشّورى ثقافة وسلوك

﴿وَشاوِرْهُمْ فِي الأمْرِ فإذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلى ٱللهِ إنّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾. (آل عمران / ١٥٩)

ومن المبادئ والقِيَم الثّقافيّة الأساسيّة في كتاب الله، هو مبدأ الشّورى.. فإنّ القرآن الكريم دعا الرّسول ﷺ والمسلمين أن يلتزموا بمبدأ الشّورى، وأن يتشاوروا في مختلف شؤونهم العامّة والخاصّة.. وللشّورى أهداف تربوية وسلوكية هامّة في بناء الشّخصية والأوضاع السّياسية والإجتماعية والحياتية العامّة..

فالشّخص الّذي يتشاور مع الآخرين، يتحرّر من الفردية والإعتداد بالرّأي والإستبداد.. إنّ المُستبدّ برأيه وقراره، إنّما يضع الحواجز الفكرية والنّفسية بينه وبين الآخرين، ويقود موقفه وموقف الآخرين الّذين معه في كثير من الأحيان إلى الهلاك والدّمار.. وكثيراً ما ينطلق المُستبدّ برأيه من الشّعور بالغرور والإستعلاء على الآخرين والإستهانة بآرائهم وخبراتهم وتجاربهم.. وكم كانت الإنفرادية والإستبداد بالرّأي سبباً للهلاك والدّمار وتمزيق وحدة الصّفّ وتفتيت الجماعة وانهيار البناء الإجتماعي والأُسري والسّياسي والإقتصادي والعسكري... إلخ.

وصدق الإمام عليّ عليه السلام بقوله: «**مَنْ ٱستبدَّ برأيهِ هَلك**»..

وفي موارد عديدة ركّز القرآن الكريم مفهوم الشّورى والتّشاور في الأُمور جميعها: الإجتماعية والسّياسية والأُسرية والعسكرية ... إلخ.

قال الله تعالى: ﴿فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ ٱللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ ٱلقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشاوِرْهُمْ فِي الأمْرِ فإذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلى ٱللهِ إنّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلمُتَوَكِّلِينَ﴾. (آل عمران/ ١٥٩)

إنّ الآية تتحدّث عن صورة مثالية للقيادة والقائد، وعن كيفية تعامل الرّسول ﷺ الدّاعية والقائد مع مجتمعه وأتباعه.. كيف يتعامل كقائد وكداعية لله وللرّسالة.. وكيف أنّهم مجتمعون من حوله ومتكاتفون معه على أساس اللّطف والمحبّة والإحترام والعفو عن المُخطئ، والإستغفار له، وليس على أساس التسلّط والقهر والفرض.. ثمّ يدعوه إلى أن يُشاورهم في الأُمور الّتي تعرض أمامه.. أمور الدّعوة والجهاد والدّولة الإسلامية وغيرها..

طبّق الرّسول ﷺ مبدأ الشّورى، وشاورَ أصحابه في مواقع عديدة، والتزم بآرائهم، وعمل بها.. شاورهم في معركة بدر وأُحد والأحزاب وغيرها من المواقف.. بل قبل ﷺ رأي أصحابه في معركة أُحد المُخالف لرأيه..

ومن الواضح أنّ الرّسول ﷺ اذ يستشير أصحابه، لم يكن بحاجة إلى رأي، فهو المُسدّد بالوحي، وهو المعصوم من

الخطأ.. إنّما أمرَ بالشّورى ليكون منهجاً للأُمّة، وجُزءاً من السِّيرة والسّلوك النّبويّ الكريم، وليُشعر أتباعه باحترام آرائهم وبمشاركتهم في القرار والمسؤولية، وليدرِّبهم على هذه القِيَم، ويُرسِّخها ثقافة عملية وسلوكاً متعارفاً عليه..

إنّ القرآن يُثقِّف أتباعه ويُربِّيهم على مبدأ الشّورى، كأفراد وكأُمّة وجماعة، وكقيادة وممارسين لحمل المسؤولية عندما يصف النّخبة المؤمنة بقوله:

﴿وَٱلّذِينَ ٱسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَأقامُوا ٱلصّلاةَ وأمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ وَمِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾. (الشّورى/ ٣٨)

ويتسامى مفهوم الشّورى في وعي المسلم وحياته عندما يقرأ دعوة القرآن للرّسول ﷺ القائد وحامل الرّسالة أن يتشاور مع أتباعه، ويحترم رأيهم..

وهكذا يُثبِّت القرآن الشّورى منهجاً ونظاماً للحياة.. فالقائد يُشاور أتباعه.. وربّ الأُسرة يتشاور مع أفراد أُسرته: الزّوجة والأبناء والإخوة.. ليُشعرهم بالإحترام والمشاركة بالرّأي، وليستفيد من آرائهم وخبراتهم وملاحظاتهم..

وقد ثبّت القرآن مبدأ الشّورى والتّشاور بين الزّوج والزّوجة حول رضاع الولد وفطامه.. ذلك لأنّ الرِّضاع حقّ للأُمِّ، وليس واجباً عليها ـ كما يقول الفقهاء ـ، وهذا التّشاور تثميناً لحقِّ الأُمّ في الرّضاعة، واحترام رأيها، لئلّا يكون العُنف والإستبداد، هو

أسلوب التعامل، وفرض الحلول.. نقرأ هذه الدّعوة والثّقافة في قوله تعالى:

﴿وَٱلوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضاعَةَ وَعَلى ٱلمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلّا وُسْعَها لا تُضارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِها وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلى ٱلوارِثِ مِثْلُ ذلِكَ فَإِنْ أَرادا فِصالاً عَن تَراضٍ مِنْهُما وَتَشاوُرٍ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِذا سَلَّمْتُم ما آتَيْتُم بِالمَعْرُوفِ وَٱتَّقُوا ٱللهَ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. (البقرة/ ٢٣٣)

وينبغي الإيضاح أنّ الشّورى والتّشاور في عالمنا المعاصر يحتاج إلى خبراء ومتخصّصين في المجالات الّتي يتمّ استشارتهم فيها.. فالمستشار في شؤون السّياسة أو المال أو المجتمع أو الأمن والعسكرية أو غيرها، يجب أن يكون ذا خبرة ومعرفة في القضية الّتي يُستشار بها..

بل يتّسع مفهوم الشّورى والتّشاور ليمتدّ إلى الشّؤون الفردية .. فمَنْ أراد أن يؤسّس شركة أو مشروعاً انتاجياً أو ثقافياً، عليه أن يستشير الخبراء والمتخصّصين في ذلك..

ومَنْ أراد أن يتزوّج، عليه أن يستشير في قضيّة الزّواج، والتعرّف على شريك الحياة من الآخرين..

ومَنْ أراد أن يقوم بعملٍ أو مؤسّسةٍ أو مشاركةٍ في الحياة السّياسية، أو الإجتماعية، عليه أن يستشير أصحاب الخبرة؛ لئلّا يقع في الخطأ والفشل والخسارة..

وفي عالمنا المعاصر يُطبّق مبدأ الشّورى في اختيار الحاكم والحكومة وانتخابها، وتُبنى مؤسّسات الدّول والمجتمع على أساس مبدأ الشّورى، واستشارة ذوي الخبرة والإختصاص.

إنّ القرآن يوجّهنا إلى ذلك بقوله:

﴿فاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾. (الفرقان/ ٥٩)

﴿فاسْأَلُوا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِنْ كُنْتُم لا تَعْلَمُونَ﴾. (الأنبياء/ ٧)

وفي مبادئ الشّريعة نجد قاعدة عقلية وشرعية تقول: «**مَنْ يعلم حجّة على مَنْ لا يعلم**».. فعلى مَنْ لا يعلم الرّجوع إلى مَنْ يعلم في كلّ شأنٍ وقضيةٍ، لا سيّما القضايا المهمّة والخطيرة في حياة الفرد والجماعة والدّولة والأُمّة. كقضايا السّياسة والأمن والإقتصاد والإعمار والأزمات الّتي تواجهها الأُمّة..

واعتبر الشّهيد السّعيد الفقيه والمفكّر الإسلامي السيّد محمّد باقر الصّدر رضي الله عنه الشّورى أساساً لنظرية الحكم وإقامة الدّولة الإسلامية في عالمنا المعاصر..

كما ثبّت دور الشّهادة أو الرّقابة في هذه الدّولة للمرجعية الدّينية المتصدّية والمؤهّلة لهذه المهمّة السّياسية.. واعتمد في هذه النّظرية على آيتين هما:

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ﴾. (الشورى / ٣٨)

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكاةَ وَيُطِيعُونَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللهُ إِنَّ ٱللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. (التّوبة / ٧١)

وبحثَ هذه النّظرية في كتابه: (خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء).

الغرور مرض أخلاقيّ

إنّ أزمة الإنسان الكُبرى ومعاناته على هذه الأرض.. إنّما هي أزمة أخلاقية قبل أن تكون أزمة علمية أو ماديّة..

إنّ التّكوين النّفسي والمُحرِّك الأخلاقي المنطلق من أعماق الذّات هو الدّافع لمعظم سلوك الإنسان.. فعندما يكون محتوى الذّات الدّاخلي محتوى سليماً ونظيفاً، يكون السّلوك الخارجي نظيفاً وسليماً كذلك.. وعندما يكون محتوى الذّات الباطني سيِّئاً لا يكون سلوكه إلاّ سيِّئاً، فكما يقول المثل: «وكلّ إناءٍ بالّذي فيه ينضح».

إنّ الإنحطاط الأخلاقي والإنحراف السّلوكي يُمثِّل أسوأ ظاهرة اجتماعية في حياة الإنسان.. ومن أسوأ الأوضاع والحالات الأخلاقية هو أخلاقية الغرور.. هذا المرض الأخلاقي الّذي يُصيب ضِعاف النّفوس.. الجهّال المخدوعين بما لديهم من قوّة ومال وجاه وجمال وسلطة ومعرفة... إلخ.

عرّفت قواميس اللّغة الغرور: «غرّ الرّجل غرارة، وغرورة: جهل الأُمور، وغفل عنها، فهو غِرّ»[1].

(١) المعجم الوسيط.

إنّ الإنسان المغرور يشعر بالإستعلاء على الآخرين والإستهانة بهم، والتّعامل معهم بأنّهم أقلّ منه، بل وقد يصل الأمر ببعض المغرورين أن يرى الآخرين لا يستحقّون الإهتمام بهم ولا احترام شخصيّاتهم..

إنّ مرض الغـرور الّذي يُصيـب معظم الحكّام والمُتنـفِّذين وأصحاب المال والقوّة.. إنّ هؤلاء يُصابون بانتفاخ الشّخصية، وورم الذّات الأجوف.. يتحوّلون إلى أناس عدوانيين ونرجسيين.. يعبدون ذواتهم ولا يرون في النّاس مثيلاً لهم.. والقرآن يُشخِّص لنا هذه الحقيقة، ويُحلِّل لنا هذا التّكوين النّفسي المريض..

جاء ذلك في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلإِنْسانَ لَيَطْغى * أَنْ رَآهُ ٱسْتَغْنى﴾. (العلق/ ٦ ـ ٧)

إنّ الإنسان يتوهّم ويرى نفسـه قد ٱستغنى في كلِّ شيءٍ وليس بحاجة إلى الله سـبحانه ولا إلى الآخـرين، وذلك منتهى الغرور الّذي يقوده إلى الطّغيان والعدوان والأنانية المطلقة..

إنّ السّبب الأسـاس للغرور هو الجهل.. وصغر النّفـوس، لاسيّما عند حدوث قفزة مفاجئة في حياتـه لم يكن يستوعبها.. إذ يرى ما عنـده عظيماً لا يملكه أحد، رغم تفاهتـه ومآله إلى الزّوال.. يُذكِّرنا هذا الصِّنف من النّاس ببعض الأحكام والوصايا الّتي تقول بكراهية التّعامل مع مُسْتحدَث النِّعمة..

إنّ القرآن الكريم يخاطب أولئك المغرورين بقوله:

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلجِبالَ طُولاً * كُلُّ ذٰلِكَ كانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً * ذٰلِكَ مِمّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلحِكْمَـةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللهِ إِلٰهاً آخَرَ فَتُلْقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً﴾. (الإسراء/ ٣٧ ـ ٣٩)

إنّ القرآن يؤنِّب هذا المغرور بجسمه وقوّته أو سلطته وماله ... إلخ، ويستهين به، ويعد تلك السّلوكية من السّلوكيات السّيِّئة المكروهة عند الله وعند النّاس.. وأنّ الإقلاع عنها وتطهير النّفس من أدرانها، لهو حكمة وتسام في عالم الخُلْق والسّلوك.

ومرّة أخرى يُحذِّر القرآن من الغرور والكبرياء الّذي من مظاهره: المرح(*) والفخر والإختيال(**)، قال تعالى:

﴿وَلَا تُصَـعِّرْ خَدَّكَ لِلنّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ ٱللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْـتالٍ فَخُور * وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ ٱلأَصْواتِ لَصَوْتُ ٱلحَمِيرِ﴾.

(لقمان/ ١٨ ـ ١٩)

ويعرض لنا القرآن نماذج من الّذين غرّتهم الحياة الدّنيا، وٱستولى عليهم الغرور، وما كان مصيرهم وما حلّ بهم نتيجة غرورهم..

(*) المرح: شدّة الفرح والتوسّع فيه.

(**) الإختيال: التكبّر في المشي.

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّـتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَحَفَفْنَاهُما بِنَخْلٍ وَجَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً * كِلْتا ٱلْجَنَّـتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها وَلَمْ تَظْلِم مِنْهُ شَيئاً وَفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً * وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقالَ لِصَاحِبِـهِ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أنا أَكْثَرُ مِنكَ مالاً وَأَعَزُّ نَفَراً * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أن تَبِيدَ هٰذِهِ أَبَداً * وَما أَظُنُّ ٱلسّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِن رُدِدتُّ إلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنقَلَباً * قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرابٍ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوّاكَ رَجُلاً * لٰكِنَّ هُوَ ٱللّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً * وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ ٱللّهُ لا قُوَّةَ إِلّا بِاللهِ إن تَرَنِ أنا أَقَلَّ مِنكَ مالاً وَوَلَـداً * فَعسىٰ رَبِّي أن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ ٱلسّماءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً * أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً * وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ على ما أَنفَقَ فِيها وَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِها وَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً * وَلَمْ تَكُن لَهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ ٱللّهِ وَما كانَ مُنتَصِراً * هُنالِكَ ٱلْوَلايَةُ لِلّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَخَيْرٌ عُقْباً ﴾.

(الكهف/ ٣٢ ـ ٤٤)

إنّ قراءة هذا النّصّ وتحليل محتوى المحاورة بين رجلٍ متواضعٍ وآخر مغرور بما عنده من مال وأبناء وبساتين مغرية بخضرتها وجمال منظرها ومردود ثمرها..

إنّ المغرور يقول لصاحبه: ﴿أنا أَكْثَرُ مِنكَ مالاً وَأَعَـزُّ نَفَراً﴾..

إنّه مغرور يتباهى بما عنده من المال والرِّجال، وينسى فضل الله عليه.. وينسى أنّ كلّ ذلك آيلٌ إلى الزّوال.

ركبه الغرور فظنّ أنّ ما بيـده خالد لا يبيد ولا ينتهي، فهو يُردِّد: ﴿مَا أَظُنُّ أن تَبِيدَ هٰذِهِ أَبَداً﴾..

بل قاده الغرور إلى الكفر بالمسؤولية أمام الله وبيوم الحساب.

والقرآن في هذه المنظومة من الآيات يذكِّره بحقيقته البشرية وبنشأته الأُولى وبمآله.. جاء ذلك البيان على لسان صاحبه الّذي حاوره، وردّ عليه أفكاره وفهمه الخاطئ: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرابٍ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوّاكَ رَجُلاً...﴾..

وينتهي الحوار، ويدور الزّمن على هذا المغرور المُتباهي، فيفاجأ بجنّته (بستانه) وقد أُحيط بثمره..

فتحوّل الغرور إلى إحباط ويأس وندم وحـيرة: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾..

وقد خسر كلّ شيء.. لقد أصبحت أملاكه وأمواله الّتي ملأت نفسه غروراً.. أصبحت خاوية على عروشها ولم يبقَ منها شيء..

وصورة أخرى من صـور الغـرور الّتي مثّلها رأس النِّـفاق عبدالله بن أُبيّ، الّذي تجاوز حـدوده وقدره، إذ قال متوعِّـداً

الرّسول ﷺ والمؤمنين بإخراجهم من المدينة، بما يملك من قوّة وعشيرة ومال.. إنّه يُسمّي نفسه الأعزّ، ويُسمّي الرّسول ﷺ والمؤمنين الأذلّ.. جاء ذلك في قوله تعالى:

﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلأَعَزُّ مِنْها ٱلأَذَلَّ وَلِلّهِ ٱلعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلكِنَّ ٱلْمُنافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.
(المنافقون/ ٨)

لقد انتهى ودُمِّر غرور المنافقين، وعلت كلمة الله وانتصر الحقّ.. وأصبحت كلمته مَثَلَ سوء للنِّفاق والغرور..

ومثل المنافقين في الغرور إخوانهم اليهود الّذين ملأ الغرور نفوسهم، وراحوا يتوعّدون ويُهدِّدون المسلمين بما يملكون من مال وسلاح وحصون ومقاتلين، فأتى الله بنيانهم من القواعد، ودمّر قواهم وأذلّ غرورهم.. وانتصر المسلمون عليهم فلم تمنعهم حصونهم، ولم تنفعهم أموالهم ولا سلاحهم ولا قواهم..

ويتحدّث القرآن عن عاقبة هذا الغرور اليهوديّ بقوله:

﴿هُوَ ٱلَّذِي أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلكِتابِ مِن دِيارِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِنَ ٱللهِ فَأَتاهُمُ ٱللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي ٱلأَبْصارِ﴾. (الحشر/ ٢)

إنّ المغرور أعمى لا يُبصر، ومشلول العقل لا يُفكِّر، وأحمق لا يزن الأُمور بموازينها الصّحيحة..

ويعرض القرآن صوراً أخرى من أعماق التاريخ لأُولئك المغرورين الفرحين بقوّتهم وسلطانهم وأموالهم، ويُعرِّف بالدّمار والخراب الّذي أصابهم، ويعرض قارون المغرور بماله وثروته مثالاً لذلك.. قال سبحانه:

﴿إِنّ قارُونَ كانَ مِن قَوْمِ مُوسى فَبَغى عَلَيْهِمْ وَآتَيْناهُ مِنَ ٱلكُنُوزِ ما إِنّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالعُصْبَةِ أُولِي ٱلقُوَّةِ إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللهَ لاَ يُحِبُّ ٱلفَرِحِينَ﴾. (القصص/ ٧٦)

﴿قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ ٱلقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلاَ يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ* فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلحَياةَ ٱلدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونَ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾. (القصص/ ٧٨ ـ ٧٩)

تلك هي صورة من صور مأساة الغرور بالقوّة والمال والزِّينة.. ومثله مَنْ سبق من القرون الماضية ممّن هم أشدّ قوّةً وأكثر جمعاً من المال والرِّجال وأسباب السّلطة.. إنّ القرآن يُعرِّفنا أنّ الّذين كانوا مُعجَبين بما لدى المغرورين من المال والسّلطة والقوّة والزِّينة، وكانوا يتمنّون الموقع نفسه، أصبحوا يقولون: لقد منَّ الله علينا إذ لم نكن مثلهم..

ويستدعي القرآن صورةً أخرى واستغاثةً من عالم الآخرة، وما فيه من عذاب للمجرمين المغرورين بأموالهم وسلطتهم الّتي استعملوها في الكفر والجريمة والفساد والعدوان.. فيتلو علينا عبارات النّدم على الاغترار بالمال والسّلطة..

نقرأ ذلك في قوله تعالى:

﴿وأمّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَـهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يا لَيْتَـنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَـهْ * وَلَمْ أَدْرِ ما حِسـابِيَه * يا لَيْتَها كانَتْ ٱلقاضِيَـةَ * ما أَغْنى عَنِّي مالِيَـهْ * هَلَكَ عَنِّي سُـلْطانِيَهْ * خُذُوهُ فَغُلُّـوهُ * ثُمَّ ٱلجَحِيمَ صُلُّوهُ﴾. (الحاقّة / ٢٥ ـ ٣١)

تلك هي عاقبة الغرور.. فكلّ شيءٍ يذهب ويفنى من القوّة والمال والسّلطة والجمال والعلم والوجاهة... إلخ.

ويبقى الخُلُق الحَسن والسّلوك القويم والصِّدق مع الله سبحانه.

إنّ هدف القـرآن من عرض هذه النّماذج هو التّثقيـف على البراءة من الغرور، وتهذيب النّفس، والإلتزام بمكارم الأخـلاق ومحاسنها.

﴿إنّ هٰذا ٱلقُرْآنَ يَهْدِي لِلّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾. (الإسراء/ ٩)

إنّ أبرز حالات الغرور الّتي شخّصها لنا القرآن الكريم هي:

١. الاغترار بالمال.

٢. الاغترار بالأعوان والأنصار.

٣. الاغترار بالسّلطة.

٤. الاغترار بالقوّة والصّحّة.

٥. الاغترار بالجمال.

٦. الاغترار بالعلم والكفاءات والمهارات.

٧. الاغترار بالمكانة الإجتماعية.

٨. الاغترار بالعقيـدة الخاطئـة المُحرّفـة، كعقيـدة اليهـود والنّصارى. هذا الاغترار الّذي وصفه القرآن بقوله:

﴿ذلِكَ بِأَنَّهُم قالُوا لَنْ تَمَسَّـنا ٱلنّارُ إلّا أيّاماً مَعْـدُوداتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم ما كانُوا يَفْتَرُونَ﴾. (آل عمران/ ٢٤)

٩. الاغترار بالأعمال والأفعال الّتي تصدر عن المغـرور.. حتّى وصفهم بقوله:

﴿وإذا قِيلَ لَهُمْ لَاتُفْسِدُوا فِي ٱلأَرْضِ قالُوا إنّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ * ألا إنَّهُمْ هُمُ ٱلمُفْسِدُونَ وَلكِن لا يَشْعُرُونَ﴾.
(البقرة/ ١١ ـ ١٢)

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمالاً * ٱلّذِينَ ضَلَّ سَـعْيُهُمْ فِي ٱلحَياةِ ٱلدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُم يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾.
(الكهف/ ١٠٣ ـ ١٠٤)

وقد يغترّ البعض من المؤمنين بكثرة عبادته أو عمله الصّالح، فيبطل عمله وعبادته بهذا الإغترار، فيذهب عمله هباءً منثوراً.

لا تحتقر أحداً

ويتحدّث القرآن الكريم عن علاقة الإنسان بالإنسان، ويُثقّفه، ويُعلّمه أسس التّقييم، وأساليب التّعامل والتّعايش والعلاقة مع الآخر..

القـرآن علّم الإنسـان أنّه إنسـان.. تتجلّى فيه معان وقِيَـم إنسانية، هي قيمة حياته ووجوده، والنّاس سواسية في الإنسانية، فأصل المنشأ الإنساني واحد..

﴿يا أَيُّها ٱلنّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمُ ٱلّذِي خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَبثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً وَنِساءً﴾.

(النّساء/ ١)

وكرّم الله هذا الإنسان وعظّمه وثبّت أرقى المبادئ الأخلاقية والقانونية لبيان حقّ هذا الإنسان وحماية انسانيّته من اعـتداء الآخرين عليها، ومن اعتداء نفسه على إنسانيّته.. وبعبارة أخرى توفير الحماية لِلانسان من ظلم أخيه الإنسان، ومن ظلم نفسه لنفسه.

يتجلّى أسمى بيان لتكريم الإنسان، واحترام شخصيّته في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْناهُمْ فِي ٱلبَرِّ وٱلبَحْرِ وَرَزَقْناهُم مِنَ ٱلطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلاً﴾.

(الإسراء/ ٧٠)

وفي تزاحم الذّوات، وصراع الأنا والمصـالح، تبرز ظاهرة استعلاء البعض من بني الإنسان على أخيه الإنسان، فيشعر بالعلوّ والغرور والكبرياء الأجوف.

فتتكوّن في نفسه رؤى وتصوّرات ونوازع خاطئة يرى نفسه فيها أعظم من غيره، بل قد يرى البعض من هؤلاء أنّ الوجود ملخّصاً بذاته.. وتتعاظم تلك الظّاهرة المرضيّة والحالة الإنحرافيّة عند هذا الصِّنف من المرضى، عندما يرى نفسه متفوّقاً على غيره بالسّلطة أو المال أو الجمال أو الصّحّـة أو المكانة العلميـة أو الإجتماعية، بل لا يرى أنّ غيره يستحقّ أن يُحترم أو يُكرّم، أو يُعامل كإنسان له من الحقوق والكرامة ما يُعادله ويُساويه هو.. واضعاً نفسه ضمن مصاديق وصف القرآن للذّات الطّاغية المتكبِّر بغير حقّ:

﴿إِنّ الإِنْسانَ لَيَطْغى * أن رآهُ ٱسْتَغْنى﴾. (العلق/ ٦ ـ ٧)

إنّ هذا الطّغيان يتجسّد سلوكاً عدوانياً ضدّ الآخرين، يتمثّل في احتقار الآخر والإستخفاف به، والتّهوين من شأنه، وأهمِّيّة ما يصدر عنه.. لذا يُعبِّر عن ذلك بالسّخرية والغمز واللّمز والهمز والغيبة.

والقرآن الحريص على حفظ كرامة الإنسان وقيمته الإنسانية، واجه تلك الظّواهر السّلوكية والأخلاقية العدوانية.. واجهها بالرّفض والتّحريم.. واعتبرها من كبائر الآثام، ومساوئ الأخلاق الّتي جاء الوحي ليُطهِّر المجتمع منها، ويُحصِّن الإنسان المسلم من الإصابة

بها .. لذا نجده بعد أن ينهى عن تلك الأخلاقية المنحطّة .. يذكّر الإنسان بوحدة النّوع وأصل المنشأ، وأنّ الإستخفاف بالآخرين والإستهزاء بهم عمل خاطئ، وتجاوز على إنسانية الإنسان ..

لنقرأ النّصّ القرآنيّ، ولننصت لما يُتلى، ولنفهم ولنعي تلك الثّقافة الأخلاقية الّتي سعى القرآن الكريم لتربية المجتمع عليها:

﴿يَا أَيُّها ٱلّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِن قَوْمٍ عَسى أن يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِساءٌ مِن نِساءٍ عَسى أن يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أنفُسَكُمْ وَلا تَنابَزُوا بِالألْقابِ بِئْسَ ٱلإسْمُ ٱلفُسُوقُ بَعْدَ ٱلإيمانِ وَمَن لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ ٱلظّالِمُونَ * يا أَيُّها ٱلّذِينَ آمَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ ٱلظَّنِّ إنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَعْضُكُم بَعْضاً أيُحِبُ أحَدُكُمْ أن يأْكُلَ لَحْمَ أخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا ٱللهَ إنَّ ٱللهَ تَوّابٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّها ٱلنّاسُ إنّا خَلَقْناكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إنَّ أكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللهِ أتْقاكُمْ إنَّ ٱللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

(الحجرات/ ١١ ـ ١٣)

تحدّث المُفسّرون عن سبب نزول هذه الآيات، وذكروا الحوادث والظّواهر الإجتماعية الّتي نزلت لتُعالجها، وتُطهّر المجتمع من آثارها .. فإنّ آيات القرآن كان بعضه ينزل بسبب وجود بعض الحالات السّيّئة في المجتمع ليُعالجها، ويُوضّح موقف الشّريعة منها، ويضع الحلول النّاجعة لها ..

ذكر الواحدي في أسباب النّزول إنّ قوله تعالى: **﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِن قَوْمٍ﴾**، نزلت في ثابت بن قيس؛ لأنّه عيّر أحد الجالسين في مجلس الرّسول ﷺ بأُمّه .. وذكر أنّ قوله تعالى: **﴿وَلا نِساءٌ مِن نِساءٍ﴾**، نزلت في بعض الصّحابيّات ممّن سخرنَ من ملابس أُمّ سلمة .. زوج الرّسول ﷺ .

وفي موضع آخر يستنكر القرآن أخلاقية أولئك الّذين يهمزون النّاس ويلمزونهم، لغرض الحطّ من شخصيّاتهم، والنّيل منهم .. ويجعل لهم الويل والعذاب ..

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ(*) لُمَزَةٍ(**) * ٱلّذِي جَمَعَ مالاً وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أنَّ مالَهُ أخْلَدَهُ﴾. (الهمزة/ ١ ـ ٣)

وفي مواضع أخرى يستعرض نماذج من سلوكيّة السّاخرين والمستهزئين بالنّاس بدافع التّعالي والغرور والعُجب وعبادة الذّات ..

﴿زُيِّنَ لِلّذِينَ كَفَرُوا ٱلْحَياةُ ٱلدُّنْيا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلّذِينَ ٱتّقَوا فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ وَٱللهُ يَرْزُقُ مَن يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾. (البقرة/ ٢١٢)

ويعرض لنا القرآن الكريم صوراً من سلوكيّة السّاخرين

(*) الهُمَزَة: الّذي يغتاب النّاس.

(**) اللُّمَزَة: الّذي يعيب النّاس .. ويذكر عيوبهم.

والمستهزئين بالنّاس بدافع الغرور والإستعلاء من مساحات تأريخية شتّى.. نقرأ ذلك من خطابه للنّبيّ محمّد ﷺ:

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَاتِ وَٱلَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾. (التوبة / ٧٩)

﴿وَإِذا رَآكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلّا هُزُواً أَهٰذا ٱلَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمٰنِ هُمْ كافِرُونَ﴾.
(الأنبياء/ ٣٦)

﴿فَلَمّا جاءَتْهُم رُسُلُهم بِالبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُم مِنَ ٱلعِلْمِ وَحاقَ بِهِم ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. (غافر/ ٨٣)

ومنها ما ينقله لنا القرآن من أعماق التاريخ ومساحات القرون العميقة، فيُحدِّثنا عن هذه الظّاهرة في مجتمع النّبيّ نوح عليه السلام فيُجسِّد الصّورة بقوله:

﴿فَقَالَ ٱلمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلّا بَشَراً مِثْلَنا وَمَا نَراكَ ٱتَّبَعَكَ إِلّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ﴾. (هود / ٢٧)

ويأتي جواب النّبيّ نوح عليه السلام، وردّه الحاسم على تلك الأخلاقية المتعالية المغرورة، ورفضه لما طلبوه منه أن يطرد الفقراء والمستضعفين والطّبقة المسحوقة في المجتمع.. فهؤلاء

حسب رؤاهم السّيِّئة لا يستحقّون أن يجتمعوا معهم في مجلسٍ أو يُحسبون معهم في صفٍّ عقيديّ واحد، أو يُساوى بينهم وبين أولئك في التّعامل والوجود الإجتماعي، ويردّ النّبيّ نوح عليه السلام على هذا الفهم والموقف الخاطئ بقوله:

﴿وَيا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُم عَلَيْهِ مالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلّا على ٱللهِ وَما أنا بِطارِدِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَلٰكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ * وَيا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ * وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزائِنُ ٱللهِ وَلا أَعْلَمُ ٱلغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللهُ خَيْراً ٱللهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ ٱلظّالِمِينَ﴾.
(هود / ٢٩ ـ ٣١)

وينتهي الجدل والحوار بين نوح وأولئك الطّغاة المستكبرين بإعلانه عن مبادئ الدّعوة الإلهية السّامية بأنّه لن يطرد الّذين تزدري أعينهم.. فإنّ مَنْ يفعل ذلك فهو ظالم لا يستطيع أحد أن يحميه من عذاب الله.. إنّ الله ينظر لما في أنفسهم من خير فيتعامل معهم من خلال ذلك.. جاء هذا البيان في النّصّ القرآني:

﴿مَنْ يَنصُرُنِي مِنَ ٱللهِ إِن طَرَدْتُّهُمْ﴾..

﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزائِنُ ٱللهِ وَلا أَعْلَمُ ٱلغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللهُ خَيْراً ٱللهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ ٱلظّالِمِينَ﴾..

وهكذا يتحدّث القرآن عن ظاهرة التّعالي على الآخـرين، وظاهرة السّـخرية منهم والإسـتهزاء بهم.. وهمـزهم ولمـزهم.. ويعتبرها من أسوأ الظّواهر الأخلاقية الّتي يجب استئصالها من المجتمع، حماية لكرامة الإنسان وشخصيّته الإنسانية.

وللغرض ذاته، حرّم القرآن الغيبة والتجسّس على الآخرين؛ لكشف عيوبهم ونشرها في المجتمع؛ لإسقاط شخصيّاتهم، والنّيل منهم..

﴿وَلا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُ أَحَدُكُمْ أن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾.

(الحجرات/ ١٢)

وبعد أن نهى القرآن الكريم في سورة الحجرات عن السّخرية أن يسخر رجل من رجل أو امرأة من امرأة، وخاطب الآخرين بأنّ مَنْ تسخرون منهم عسى أن يكونوا خيراً منكم.

نهى عن التنابز بالألقاب، وهو أن يذكر شخص شخصاً آخر بلقبٍ يكرهه فيسيئ لشخصيّته ومكانته وينتقص منه.. وفي هذه الآية ينهى القرآن عن اللّمز.. عن ذكر عيوب النّاس وتعييرهم للحطِّ من مكانتهم.. واعتبر هذا اللّمز.. هو لمز للنّفس أيضاً.. لأنّه سيُقابل بالمثل وستشيع في المجتمع هذه السّلوكية السّيِّئة..

ويستمرّ في النّهي عن التجسّس.. وهو تتبّع هفوات النّاس ونشرها والتّشـهير بها، كما نهى عن الظّنّ السّيِّئ بالآخـرين،

والتعامل معهم على أساس هذا الظّن، فإنّه إثم وسلوك مرفوض..

ولحفظ كرامة الإنسان، وحماية شخصيّته، ينهى القـرآن عن الغيبة، وهي ذكر الإنسان في غيبته بشيء يكرهه، وشبّهها بأكل لحم الإنسان الميِّت لكراهتها، وقذارة تناولها..

والآية تُثبِّت أنّ النّاس خُلِقوا من ذكرٍ وأُنثى، فهم سواء في الإنسانية، وأكرمهم عند الله أتقاهم.. إنّ ما اشتملت عليه هذه الآية من قِيَم أخلاقية وسلوكية لحفظ كرامة الإنسان، لهي من أرفع القِيَم والتّعليمات التّربوية لبناء مجتمع يُحترَم فيه الإنسان وتُصان فيه كرامته وحقوقه..

الأنا وعبادة الذّات

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾.
(الفرقان/ ٤٣)

يتحدّث القرآن الكريم عن قضيّة نفسية هي من أهم وأخطر القضايا في حياة الإنسان.. وهي أزمة الأنانية وعبادة الذّات..

إنّ معظم مشاكل الإنسان وأزماته النفسيّة والسّياسيّة والإقتصادية والإجتماعية، وحالات الصِّراع والخلافات في المجتمع والأُسر والجماعات البشرية تعود إلى الأنانية وعبادة الذّات، والنّرجسية المرضية..

إنّ الإنسان الّذي يستغرق الوجود ويلخِّصه بذاته، وينظر إلى ما حوله ويتعامل معه من خلال الأنا والأنانية، لن يكون إلاّ مشكلة في المجتمع وعبئاً على ذاته..

إنّ حبّ الذّات غريزة مركوزة في أعماق الإنسان، وهذا الحبّ والإعتناء أمر مشروع عندما يكون التّعبير عنه صحّياً وسلميّاً.

فمِن حقّ الإنسان أن يحبّ الخير لنفسه، ويدفع الأذى والضّرر عن ذاته، ويُحقِّق لها التّفوّق والمقبولية في المجتمع.. غير أنّ هذا الحبّ للذّات يتحوّل عند البعض إلى حالة مرضية، وعدوانية، واستحواذ على كلِّ شيء، وإلغاء للآخر وحرمانه حتّى من حقوقه

المشروعة، ووضع العراقيل والموانع أمامه؛ لئلّا يرتقي إلى مستوى منافسته أو التّفوّق عليه.. بل تتحوّل الأنانية إلى عداء وانتقام إلى حدِّ القتل والإفتراء والتّخريب عندما يشعر هذا الأناني بتفوّق الآخر عليه اجتماعياً أو اقتصادياً أو سياسياً أو علمياً أو صحّياً أو جمالياً، أو أيّ تفوّق آخر؛ بل لا يطيق أن يرى غيره قد حازَ خيراً أو أصبح قريباً منه في المستوى والإمكان والمكاسب..

إنّ هذه السّلوكية المرضية هي من مصاديق عبادة الذّات الّتي تحدّث عنها القرآن في خطابه للرّسول الكريم ﷺ:

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾.
(الفرقان/ ٤٣)

إنّ الكثير من النّاس لا يعبد الله.. لا يتّبع ما أراد الله، لا تتحرّك ذاته وإرادته بإرادة الله، بل يدور حول محور أنانيّته..

إنّ عبادة الذّات خطر على المجتمع والجماعات، فأينما وُجِدَ الأنانيون تحوّلوا إلى أزمة ومشكلة..

إنّ مظاهر التّعبير عن عبادة الذّات كثيرة.. ويتحدّث القرآن عن الحسد كأحد أبرز مظاهر الأنانية.. والحسد كما يُعرِّفه علماء الأخلاق هو: (تمنِّي زوال نعمة من مستحقّ لها)..

إنّه تمنِّي زوال نعمة الآخرين؛ ليكونوا أقلّ منه، أو ليتراجعوا، ويخسروا ما عندهم، فيكونوا مثله، إن كان فاقداً للصّحّة أو الولد أو المال أو الجاه، أو الموقع... إلخ.

ويتحدّث القرآن عن أبرز تجسيد للأنانية وعبادة الذّات في قصّة يوسف مع إخوانه:

﴿لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسّائِلِينَ * إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * اُقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اُطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ﴾. (يوسف/ ٧ ـ ٩)

كما يتحدّث في موقعٍ آخر عن أبرز مظاهر الأنانية والحسد الّتي تجسّدت في قابيل الّذي قتل أخاه هابيل، لا لجرمٍ جناه هابيل، غير أنّه تُقُبِّل منه عمله (نذره الّذي نذره)، فتفوّق على قابيل.. فدعت قابيل أنانيّته، إلى أن يقتل أخاه هابيل..

إنّ أبشع صورة لمأساة الأنا وعبادة الذّات يرويها لنا القرآن نموذجاً حيّاً للأنانية البشعة.. قال تعالى:

﴿وَاُتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ اِبْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قالَ إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ما أَنا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخافُ اللهَ رَبَّ الْعالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحابِ النّارِ وَذلِكَ جَزاءُ الظّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخاسِرِينَ﴾.
(المائدة / ٢٧ ـ ٣٠)

وبهذه الحوادث التأريخية المعبِّرة عن أنانية الإنسان وحسده، وتحوّل الأنانية والحسد إلى انتقام وعدوان.. يقدِّم لنا القرآن درساً تحليلياً للنّفس البشرية الأمّارة بالسّوء.. بل وكم يُسجِّل تاريخ الصِّراع السّياسي من حوادث القتل والإغتيال والإسقاط حتّى بين الأُسر والكيانات الواحدة..

وعندما تستحكم سيطرة الأنا والأنانية على الذّات، وتُصاب الشّخصية بمرض النّرجسية وعبادة الذّات، يتحوّل سلوك هذه الشّخصيات إلى ردود أفعال، وتعامل منطلق من هذه الرّؤية، عندما يستولي الغرور والكبرياء على ذاته وتصرّفاته، فيتحوّل إلى طاغوت في أعماقه.. حتّى وإن كان لا يملك إمكانات الطّاغوت بمعناه التّسلّطي والإمكاني.. ويتحدّث القرآن عن بعض مصاديق هذه الظّاهرة فيعرضهم بقوله:

﴿وَإِذا تَوَلّى سَعى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ * وَإِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهادُ﴾. (البقرة/ ٢٠٥ـ٢٠٦)

﴿وَفِي مُوسى إِذْ أَرْسَلْناهُ إِلى فِرْعَونَ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ * فَتَوَلّى بِرُكْنِهِ وَقالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾. (الذّاريات/ ٣٨ ـ ٣٩)

ولخطورة هذه المشكلة النّفسية والسّلوكية على الإنسانية، نرى القرآن يُحذِّر ويُثقِّف على التخلّص منها.. وتركيز الدّعوة إلى حُبِّ الآخرين، وحُبّ الخير لهم، كما هو حبّ الذّات، وحبّ

الخير للذّات.. بل والتّسامي نحو الإيثار، وتقديم الآخر على النّفس.. ففي التّحذير من خطورة الأنانية، والدّعوة إلى الإبتعاد عنها، واعتبارها شرّاً مُستطيراً، نقرأ قوله تعالى:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلفَلَقِ * مِن شَرِّ ما خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ ٱلنَّفّاثاتِ فِي ٱلعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ﴾. (الفلق/ ١ ـ ٥)

إنّ القرآن يُثقِّف على الإستعاذة بالله من شرّ حاسدٍ إذا حسد.. الحسد ذلك التّجسيد الخطير للأنانية وعبادة الذّات.. فقد عرفنا أنّ الحسد مُعرّف بأنّه: تمنّي زوال نعمة من مستحقّ لها.

يكشف القرآن أنّ الحاسد يحمل في نفسه شرّاً لا يرى خيراً لأحد.. لذا أمرنا أن نعوذ بالله من شرّ حاسد إذا حسد.. أن نحذر منه فإنّ الحسد يدفع إلى الحقد والكراهية والإنتقام، ومنع الخير عن الآخرين.. والحسد يدفع الحاسد إلى القتل والإغتيال وإسقاط الآخرين والإفتراء عليهم وحرمانهم.

إنّ ثقافة القرآن تُربّي الإنسان المسلم على التّوازن بين حُبّ الذّات وحبّ الخير للآخرين.. إنّها تسعى لتحرير الإنسان من الأنانية والنّرجسية، وربط هذا التّوازن بالإيمان. إنّ الرّسول محمّداً ﷺ يُعبّر عن ذلك بقوله: «**لا يؤمن أحدكُم حتّى يُحِبَّ لأخيهِ ما يُحبُّ لنفسه**»، وقوله: «**خيرُ النّاسِ مَنْ نفعَ النّاسَ**».

بل ويدعو القرآن، ويُثقِّف على الإيثار، وهو تقديم الغير على النّفس.. نقرأ هذه الدّعوة في قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُوا ٱلدّارَ وَٱلإِيمانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ ٱلمُفْلِحُونَ﴾. (الحشر/ ٩)

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وأَسِيراً إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللهِ لا نُرِيدُ مِنْكُم جَزاءً وَلا شُكُوراً﴾.
(الإنسان/ ٨ ـ ٩)

إنّ القرآن الكريم يعرض نماذج وحوادث واقعيّة قد اتّصفت بالإيثار وتجرّدت من الأنانيّة.. إنّه يعرضهم مثلاً أعلى للإقتداء بهم، واستلهام سيرتهم.. والقرآن يدعو إلى العمل التطوّعي.. يدعو إلى الأمر بالمعروف.. إلى النّهي عن المنكر، إلى مساعدة الآخرين والتّعاون معهم، وإلى بذل المال والإنفاق التّطوّعي في سبيل الله، إلى الإندماج بالجماعة والتّفاعل مع المجتمع.. إلى الدّفاع عن المظلومين والمستضعفين وحماية الحقّ، ولو كلّف الإنسان ذلك حياته وما يملك، وبذا يُحرِّر الذّات من الأنانية والإهتمام بالآخر.. والإنسان المؤمن بالله وباليوم الآخر.. يؤمن بعالم الآخرة وبالجزاء والعوض الآخر.. فهو يؤمن أنّ ما يُقدِّمه في الدّنيا، وما يتنازل عنه من ذاته ومصالحه الخاصّة يُقابله العوض

والجزاء يوم الحساب.

﴿وَما تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ ٱللهِ إِنّ ٱللهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. (البقرة / ١١٠)

وبذا تجد الذّات التّعبير السّليم عن ذاتها.. فكلّ ما يفعله الإنسان من خير للآخرين، وتنازل عن مكاسب الذّات الدّنيوية، سيعود على الذّات بالنّفع الأعظم يوم الحساب.. وبذا يحصل التّوفيق بين الأنا والآخر.. ذلك لأنّ التّنازل عن بعض مصالح الذّات هو في حقيقته لصالح الذّات..

الطّاغوت والطّغيان

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ ٱلوُثْقى لا ٱنْفِصامَ لَها﴾. (البقرة / ٢٥٦)

﴿إِنَّ الإِنْسانَ لَيَطْغى * أن رَآهُ ٱسْتَغْنى﴾. (العلق / ٥ ـ ٦)

النّاس متفاوتون بقابليّاتهم وإمكاناتهم الذّاتية والإجتماعية.. فالنّاس متفاوتون في الذّكاء والإرادة والقوّة البدنيـة، والتّركيب النفّسي والوجداني ... إلخ.

كما أنّهم متفاوتون أيضاً بإمكاناتهم الإجتماعية الّتي حصلوا عليها من خلال وضعهم الإجتماعي، كالعلم والمال والسّـلطة والمكانة الإجتماعية، وكثرة الأهل والعشيرة والأعوان والأتباع.. والنّاس بطبيعتهم يختلفـون في طريقـة تفكـيرهم وتعاملهم مع الآخرين، وكيفية توظيفـهم لما يملكـون من طاقات وإمكانات ذاتية وإجتماعية..

فمن النّاس مَنْ يحمل في نفسه روح المحبّة والتّواضع، والعفو والتّسامح، وحبّ الخير للجميع والرّغبة في البـناء والإصلاح.. ومن النّاس مَنْ يتعامل بروح العدوان والإستعلاء، والأنانية وعبادة الذّات والطّغيان ويعمل على الهدم والتّخريب..

والحياة في نظر القـرآن الكريم بناء إنساني يقوم على أساس الحقّ والعدل والمساواة واحترام الإنسان.. من بياناته المؤسِّسة

لهذا المنهج قوله تعالى:

﴿إنّ اللهَ يأمُرُ بِالعَدْلِ والإحْسان﴾. (النّحل/ ٩٠)

﴿وبِالحَقِّ أنْزَلْناهُ وَبِالحَقِّ نَزَل﴾. (الإسراء/ ١٠٥)

ولا تنتظم الحياة إلاّ إذا تعايش النّاس فيما بينهم على أساس الشّعور بالعدل والمساواة، وإلاّ إذا وجد العدل، واحترم كلّ إنسانٍ حقوق الآخرين.. والتزم حدوده، ولم يتجاوز على غيره، وذلك ما كان يوصي به الإمام عليّ عليه السلام ابنه الحسن عليه السلام ويُثبّته منهجاً وشريعةً للحياة، قال عليه السلام: «**يا بُنيّ ٱجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزاناً فِيما بَيْنكَ وبَيْنَ غَيْرِكَ، فاحْبِبْ لِغَيْرِكَ ما تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وٱكْرَهْ لَهُ ما تَكْرَهْ لَها**»[1].

ويُسمّي القرآن القانون والنّظام حدوداً، لأنّها تُحدِّد الأشياء، وتُشخِّص أحكام الموضوعات بحدودها وتعريفاتها الواقعية، وبها يعرف كلّ إنسان ما له وما عليه.. نأخذ لذلك مثلاً حديث القرآن الكريم عن أحكام الطّلاق والمواريث والوصيّة والدَّيْن وقوانينها، إذ يصفها بقوله:

﴿فإن خِفْتُمْ أَلاّ يُقِيما حُدُودَ ٱللهِ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما فِيما ٱفْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللهِ فَلا تَعْتَدُوها وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ ٱلظّالِمُونَ﴾. (البقرة/ ٢٢٩)

(١) نهج البلاغة، تنظيم وشرح محمّد عبده، ص ٥٥٥.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللهِ وَمَنْ يُطِعِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها ٱلأنْهارُ خالِدِينَ فِيها وذلِكَ ٱلفَوْزُ ٱلعَظِيمُ﴾. (النّساء/ ١٣)

ويوضِّح الإمام الصّادق عليه السلام مفاهيم التّحديد والتقنين في القرآن الكريم بقوله: «**إنّ ٱللهَ تباركَ وتعالى لم يدع شيئاً تحتاج إليه الأُمّة إلاّ أنزلهُ في كتابهِ وبيّنهُ لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم وجعل لكلِّ شَيْءٍ حَدّاً، وجعلَ على مَنْ تعدّى الحدّ حدّاً**»[1].

وإذا عرفنا أنّ لكلِّ شيءٍ حدّاً.. وعلى الإنسان أن يحترم تلك الحدود الأخلاقية والقانونية والفكرية.. فإنّ التّجاوز على تلك الحدود بشعور القوّة والإستعلاء هو طغيان وعدوان.. فإنّ تعريف الطّغيان: هو تجاوز الحدّ في المعصية.

إنّ مأساة البشرية وأزماتها الكُبرى فهي من الطّغاة والطّغيان، فالإنسان عندما يشعر بالقوّة والتّفوّق على الآخرين يطغى عليهم بدافع الإستعلاء والإستكبار وروح الظّلم والعدوان.. وبدافع الأنانية والإستيلاء على ما لديهم من الخيرات ومُتع الحياة.. أو بدافع العدوانية وروح الإنتقام وبسط السّيطرة والنّفوذ.. وذلك ما يُشخِّصه القرآن بقوله:

﴿إنّ الإنْسانَ لَيَطْغى * أن رآهُ ٱسْتَغْنى﴾. (العلق/ ٥ ـ ٦)

(١) الأصول من الكافي، ج ١، باب الرّدّ إلى الكتاب والسنّة، ص ٩٥.

فيطغى صاحب المال بماله، ويطغى صاحب السّلطة بسلطته، ويطغى صاحب القوّة بقوّته، ويطغى صاحب الأهل والعشيرة بأهله وعشيرته، ويطغى صاحب العلم بعلمه ... إلخ.

إنّ كلّ هؤلاء يُسخِّر ما عنده من إمكانيات لإذلال البشرية والسّيطرة عليها واستعبادها، وليس لحماية حقوق الإنسان، وإقامة الحقّ والعدل، وبسط الأمن والسّلام في ربوع الأرض..

فيتحوّل هذا الإنسان المتمكِّن إلى طاغوتٍ فكريّ وأيديولوجي أو إلى طاغوت مُستبدّ بسلطته وقوّته، فيبطش بالآخرين ويذلّهم، ويتجاوز على حقوقهم وكراماتهم وممتلكاتهم بسلطته وسلطانه وقوّته..

من أسوأ حالات الطّاغية والطّغيان هو ما تعانيه البشرية من حروب واستعمار وسيطرة القوى الدّولية الطّاغية على الشّعوب والأُمم الضّعيفة، بما يملك أولئك الطّغاة من أسلحة وجيوش وإمكانات علمية ومادّية طاغية.. ومثل هذا الطّغيان السّياسي هو الطّغيان العقيدي والثّقافي والعنصري.. إذ يطغى أتباع هذه العقيدة أو أبناء هذه القومية على المستضعفين الآخرين.. إنّ تلك الصّور الحيّة نشهدها كلّ يوم في عالمنا الّذي يتحكّم به الطّغاة والطّغيان.

والقرآن يستنفر كلّ القوى الخيِّرة، ويدعو البشرية إلى أن تكفر بالطّاغوت، وترفض الطّغيان، وتبتعد عنه وتحشد جهودها وقواها لتحطيم الطّاغوت والطّاغية وإنقاذ البشرية، وتحريرها من سطوته وسلطانه..

إنّ القرآن يتحدّث عن الطّاغوت الفكري والعقيدي الّذي يفرض فكره وعقيدته الضّالّة المنحرفة على البشرية، ويدعو إلى الكفر به، ومقاومة فكره ودعوته..

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ ٱلوُثْقى لا ٱنْفِصامَ لَها وَٱللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. (البقرة/ ٢٥٦)

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا ٱلطَّاغُوتَ أن يَعْبُدُوها وَأَنابُوا إلى ٱللهِ لَهُمُ ٱلبُشْرى فَبَشِّرْ عِبادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾. (الزّمر/ ١٧ـ ١٨)

ويتحدّث عن الطّاغوت العلميّ الّذي يستخدم العلم للعدوان والسّيطرة الظّالمة على البشرية وقهرها وإذلالها..

ويتحدّث عن الطّاغوت السّياسي والسّلطوي، ويعرض له نماذج من تاريخ البشرية.. فرعون وعاد وثمود ... إلخ.. وينهى في مواضع أخرى عن الرّجوع إلى حكم الطّاغوت وقضائه:

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إلى ٱلطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أن يَكْفُرُوا بِهِ﴾. (النِّساء/ ٦٠)

ويتحدّث عن الطّاغوت الإجتماعي الّذي يطغى باستعلائه الطّبقي واحتقار المكانة الإجتماعية للآخرين.. ويعرض نماذج كثيرة لذلك، مثل قوله تعالى:

﴿ما نَراكَ ٱتَّبَعَكَ إلّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا﴾. (هود/ ٢٧)

﴿وَقالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هٰذا ٱلْقُـرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ ٱلْقَرْيَتَـيْنِ عَظِيمٌ﴾. (الزّخرف/ ٣١)

﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ ٱللهِ وَلا أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ولا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللهُ خَيْراً ٱللهُ أَعْلَمُ بِما في أَنْفُسِهِم إِنِّي إِذاً لَمِنَ ٱلظّالِمِين﴾.
(هود/ ٣١)

ويتحدّث عن الطّاغوت الّذي يطغى بماله وثروته وعشيرته:

﴿أنا أَكْثَرُ مِنْكَ مالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾. (الكهف/ ٣٤)

﴿إِنّ الإِنْسانَ لَيَطْغى * أن رَآهُ ٱسْتَغْنى﴾. (العلق/ ٥ ـ ٦)

ولنُشخِّص مع القرآن وهو يتحدّث عن هذه الظّاهرة الشّرِّيرة والعدوانية في المجتمع أنّ القرآن تحدّث عن طغيان الإنسان في أوّل آياته الّتي خاطبَ بها البشـرية، ليُشخِّص مَنْ هم خصوم الدّعوة الإسلامية وعقيدة التّوحيد ورسالة الحقّ والعدل والكرامة الإنسانية.. جاء هذا البيان في سورة العلق بعد الآيات الخمس الأُولى الّتي خوطبَ بها النّبيّ محمّد ﷺ.. وهي ما نزل من القرآن في غار حراء:

﴿ٱقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلّذِي خَلَقَ * خَلَقَ ٱلإِنسانَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلأَكْرَمُ * ٱلّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلإِنسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ * كَلّا إِنَّ ٱلإِنسانَ لَيَطْغى * أن رَآهُ ٱسْتَغْنى﴾.
(العلق/ ١ ـ ٧)

ويُحذِّر القرآن أولئك الطّغاة الّذين طغوا بما كسبوا من سلطة وملك ودنيا وثروة ونِعَم.. يُحذِّرهم ويُهدِّد بالعذاب، وبالغضب الإلهيّ الّذي يعني العقوبة والإنتقام..

﴿فَأَمّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ ٱلحَـياةَ ٱلدُّنْيا * فَإِنَّ ٱلجَحِيمَ هِيَ ٱلمَأْوى﴾. (النّازعات/ ٣٧ ـ ٣٩)

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُم وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ومَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى﴾. (طه/ ٨١)

وأمامنا مشـهد آخر من مشـاهد الطّغيان والطّغاة، يرسـمه القرآن لنا من خلال منظومة من الآيات.. نقرأ منها:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِن قَبْلُ إِنّهُمْ كانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغى﴾.
(النّجم/ ٥٢)

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلأَوْتادِ * ٱلّذِينَ طَغَوْا فِي ٱلبِلادِ * فَأَكْثَرُوا فِيها ٱلفَسادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ﴾.
(الفجر/ ١٠ ـ ١٣)

﴿أَتَواصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ﴾. (الذّاريات/ ٥٣)

يستعرض القرآن الكريم صوراً من طغاة التاريخ السّحيق.. قوم نوح وعاد وثمود وفرعون الّذين طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد، ومارسوا أعمال الجريمة والقتل والتّعذيب والإضطهاد، وإشاعة الفساد بمختلف ألوانه، الفساد العقيدي والفساد الأخلاقي والفساد المالي والفساد السّلطوي... إلخ.

إنّ الطّاغية ينشر الظّلم والفساد والجريمة في البلاد .. يُعرِّف القرآن بطاغية من طغاة التاريخ وما حلّ به؛ ليكون عبرةً ودرساً للأجيال، يتّعظ به الطّـغاة، كما يتّعظ به المسـتضعفون؛ لئلّا يُهزموا ويضعفوا أمام الطّاغية، ويتصوّروا أنّ الطّغيان لا يزول .. عرض القرآن فرعون، وصراعه مع نبيّ الله موسى عليه السلام، الّذي حمل راية النّبوّة ورسالة الدّعوة إلى تحطيم الطّاغية فرعون ..

إنّ القرآن عندما يتحدّث عن فرعون إنّما يتحدّث عن ظاهرة الطّاغية والطّغيان، وليس الحديث عن حاكم فرد طغى وانتهى ..

نقرأ بعضاً من النّصوص المُتحدِّثة عن فرعون الطّاغية، وعن سلطة الطّغاة وزوالها .. قال تعالى:

﴿إِذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنّهُ طَغى * فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى * قالا رَبَّنا إِنّنا نَخافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَن يَطْغى﴾.

(طه/ ٤٣ ـ ٤٥)

﴿إِذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنّهُ طَغى﴾. (النّازعات/ ١٧)

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلأَوْتادِ * ٱلّذِينَ طَغَوْا فِي ٱلبِلادِ﴾.

(الفجر/ ١٠ ـ ١١)

ويُذكِّرنا القرآن الكريم في هذه النّصوص أنّ من مهام الأنبياء الأساسية هي مقاومة الطّغيان ومحاولة إصلاح الطّغاة بالّتي هي أحسن، فإن لم يستجيبوا فلهم الويل والعذاب .. ويؤكِّد القرآن أنّ واجب الجميع على امتداد العصور هو تحطيم الطّاغوت وتحرير الإنسان من سيطرة الطّغيان.

القادة والأتباع

من أهمّ قضايا الفرد والمجتمع والحياة الإنسانية هو عنصر السِّياسة والسّلطة والدّولة .. السّلطة الفكرية والثّقافية .. والسّلطة السِّياسية، ونمط الحكم، وإدارة شؤون الأُمّة والبلاد ..

فإنّ السّلطة السِّياسية، ونظام الحكم، أصبح العنصر المشترك الّذي دخل في كلِّ جانبٍ من جوانب الحياة ومكوّناتها ..

السِّياسة تدخل في تحديد نمط الفكر والثّقافة والسّلوك، وفي أوضاع الإقتصاد، ومستوى الحياة المعاشية، وتوفير الخدمات، وفي الأمن والإستقرار وحماية الأُمّة والبلاد، وفي كرامة الإنسان وحقوقه، وفي آخرته وعلاقته بربِّه ..

لذا كان للفكر السِّياسي والعقيدي، وللمؤسّسات السِّياسية والفكرية أثرها البالغ في حياة الفكر والجماعة، وأنماط السّلوك ونظم الحياة، ولون العقيدة والثّقافة ونظام الحياة ..

ولأهمِّيّة هذا الأمر، كانت ولاية الأمر والإمامة والسِّياسة، والسّلطة والخلافة، والقيادة والمرجعية الفكرية، من أهم قضايا الفكر والعقيدة والتّشريع في الإسلام ..

يُسجِّل المؤرِّخون وكتّاب السِّير أنّ أوّل خلاف حدثَ في المجتمع الإسلامي هو الخلاف السِّياسي، وهو خلاف في الإمامة والسِّياسة .. حدث بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بساعات .. بل

والرّسول ما زال مُسجّاً على فراشه .. إذ اجتمع نفر من الأنصار في سقيفة بني ساعدة، واختاروا سعد بن عبادة رئيساً للمسلمين .. وبعد تسرّب أنباء هذا الاجتماع إلى المهاجرين، وكانت البداية مع عمر بن الخطّاب، وأبي بكر، وأبي عبيدة، اتّجهوا إلى اجتماع السّقيفة محتجّين على بيعة الأنصار لسعد بن عبادة، ثمّ تحوّل الإجتماع إلى حوار وشجار بين الطّرفين .. انتهى إلى تراجع الأنصار أمام كتلة أبي بكر وعمر، ومبايعة أبي بكر رضي الله عنه .. وكان الإمام عليّ عليه السلام وبقيّة المهاجرين ومنهم بنو هاشم، قد اعترضوا واحتجّوا على بيعة أبي بكر ..

ومن إطار السّقيفة واجتماعها، انطلق الصّراع والخلاف، وتعدّدت المذاهب والآراء والصّراعات السّياسية والسّلطوية في المجتمع الإسلامي.

ومرجع المسلمين الأوّل في بيان إمامة الفكر والسّلطة والسّياسة، وولاية الأمر، ومرجعية الأُمّة، هو القرآن الكريم ..

تحدّث القرآن في مواقع عديدة عن ولاية الأمر والإمامة والخلافة الإنسانية على هذه الأرض، وعن الأتباع والسّادة والأكابر في المجتمع .. ووضع الأُسس والمبادئ والقِيَم الّتي تقود الإنسان إلى الرّشاد والهدى والإصلاح، وتُحقّق العدل وكرامة الإنسان، وتُجنّبه الفساد والظّلم والضّلال والجريمة والإنحراف .. وتُجنّبه غضب الله وعذاب الآخرة، وتكسبه الجنان والنّعيم ..

إنّ القرآن يعرض نموذجين من القيادات الفكرية والسّياسية،

ونموذجين من الأتباع والأنصار .. القيادة وولاية الأمر الرّشيدة، الّتي تقود في طريق الهدى والإصلاح، وإنقاذ الإنسان، وتحقيق خيره ومصالحه، وإقامة الحقّ والعدل، وحفظ حقوق الإنسان وكرامته وحرّيّته ..

ويدعو القرآن إلى اتّباع تلك القيادات والمرجعيات الفكرية..

ويتحدّث عن هذا النّمط من القيادات والأتباع، ويُثبّت لها الأحكام والمبادئ والقِيَم الّتي تسير عليها، ويدعو إلى إطاعة تلك القيادات ونصحها وتسديدها والتّعاون معها.

يورد القرآن العديد من النّصوص المُتحدّثة عن الأحكام والمفاهيم وصفات تلك القيادات والمرجعيات، كما يعرض نماذج من تجارب القيادات والشّعوب والأُمم والأتباع؛ لنكون شاهداً حسّياً ودليلاً تأريخياً، وتجربة إنسانية تتّعظ بها الأجيال اللّاحقة. قال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي ٱلأَرْضِ أَقامُوا ٱلصَّلاةَ وَآتَوا ٱلزَّكاةَ وَأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عاقِبَةُ ٱلأُمُورِ﴾.
(الحجّ / ٤١)

﴿يا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي ٱلأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِالحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الهَوى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ ٱلحِسابِ﴾.
(ص / ٢٦)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأمُرُكُمْ أن تُؤَدُّوا ٱلأمانات إلى أهْلِها وَإذا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنّاسِ أن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إنَّ ٱللَّهَ نِعِمّا يَعِظُكُم بِهِ إنَّ ٱللَّهَ كانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾. (النّساء/ ٥٨)

﴿وَجاءَ مِنْ أقْصى ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى قالَ يا قَوْمِ ٱتَّبِعُوا ٱلْمُرْسَلِينَ * ٱتَّبِعُوا مَن لا يَسْأَلُكُمْ أجْراً وَهُم مُهْتَدُونَ﴾. (يس/ ٢٠ ـ ٢١)

﴿أفَمَن يَهْدِي إلى ٱلحَقِّ أحَقُّ أن يُتَّبَعَ أمَّن لا يَهِدِّي إلّا أن يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾. (يونس/ ٣٥)

﴿قُلْ أطِيعُوا ٱللَّهَ وَأطِيعُوا ٱلرّسُولَ فَإن تَوَلَّوا فَإنّما عَلَيْهِ ما حُمِّلَ وَعَلَيْكُم ما حُمِّلْتُمْ وإن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَما عَلى ٱلرّسُولِ إلّا ٱلبَلاغُ ٱلمُبِينُ﴾. (النّور/ ٥٤)

﴿وَقالَ ٱلّذِي آمَنَ يا قَوْمِ ٱتَّبِعُون أهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرّشادِ﴾. (غافر/ ٣٨)

﴿يا أبَتِ إنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ ٱلعِلْمِ ما لَمْ يَأتِكَ فاتَّبِعْنِي أهْدِكَ صِراطاً سَوِيّاً﴾. (مريم/ ٤٣)

وكما يُعرِّف القرآن بالقيادات الرّشيدة، ويدعو إلى اتِّباعها.. فإنّه يُعرِّف بالقيادات والمرجعيات المُنحرفة والضّالّة ويُحذِّر منها.. إنّها قيادات الظّلم والفساد والجريمة والعدوان.. لا تجلب

للبشرية إلّا الخراب والدّمار، ولا تبني سلطانها إلّا على الباطل والإضطهاد.. فما وقع على البشرية من الظّلم والتخلّف والفقر والجهل إن هو إلّا إفراز لتلك السِّياسات الظّالمة، والقيادات المُنحرفة المُتسلِّطة على العباد.. لذا يريد القرآن تحرير الإنسان من تسلّط تلك القيادات وأتباعها وإزالة سلطانها وطغيانها، فإنّ مقدّمة الضّحايا هم أتباعها..

لنقرأ موقف القرآن من تلك القيادات.. ولنقرأ تجربة النّدم والمأساة.. تجربة الأتباع الّذين ألّهوا الطّغاة، واتّبعوهم، وشاركوهم في الظّلم والفساد والدّمار، فكانوا حطب جهنّم، والظّالم الغشوم الّذي يظلم النّاس لغيره فيخسر آخرته ودنياه..

يتحدّث القرآن عن القادة والسّادة الّذين جلبوا على شعوبهم وأُممهم وأتباعهم الخراب والدّمار، ويُحذِّر من تكرار تلك التجارب.. نقرأ هذه الثّقافة في قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إلى ٱلّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ ٱللهِ كُفْراً وَأحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ ٱلبَوارِ(*)﴾. (إبراهيم/ ٢٨)

﴿وَقالُوا رَبَّنا إنّا أطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأضَلُّونا ٱلسّبِيلا * رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلعَذابِ وَٱلعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾. (الأحزاب/ ٦٧ ـ ٦٨)

(*) البوار: الكساد.. وعبّر به القرآن هنا عن الهلاك.

﴿وَما أَضَلَّنا إِلّا ٱلمُجْرِمُونَ * فَما لَنا مِن شافِعِينَ﴾.
(الشّعراء/ ٩٩ ـ ١٠٠)

ويتبرّأ القادة من أتباعهم ويركلونهم بأقدامهم عندما يذهب التّرف والقوّة والسّلطان والملذّات والسّلطة والمال.. ويقف المجرمون للحساب بين يَدَي الله تعالى.. بل وفي عالم الدّنيا عندما يظفر الحقّ بالباطل، وتدور عليهم دائرة السّوء والعقاب والمهانة..

لنقرأ ما يتلوه القرآن الكريم على مسامعنا، تجربة إنسانية، فيها الدّروس والعِبَر..

﴿وَمِنَ ٱلنّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ ٱللهِ أَنْداداً(*) يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللهِ وَٱلّذِينَ آمَنُوْا أَشَدُّ حُبّاً لِلّهِ وَلَوْ يَرى ٱلّذِينَ ظَلَمُوْا إِذْ يَرَوْنَ ٱلعَذابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ ٱللهَ شَدِيدُ ٱلعَذابِ * إِذْ تَبَرَّأَ ٱلّذِينَ ٱتُّبِعُوْا مِنَ ٱلّذِينَ ٱتَّبَعُوْا وَرأَوْا ٱلعَذابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلأَسْبابُ * وَقالَ ٱلّذِينَ ٱتَّبَعُوْا لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرّأَ مِنْهُمْ كَما تَبَرَّءُوا مِنّا كَذٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللهُ أَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ وَما هُم بِخارِجِينَ مِنَ ٱلنّارِ﴾ (البقرة/ ١٦٥ ـ ١٦٧)

ويعرض القرآن صورة الحكم الفرعوني كنموذج للظّلم وعبادة الأتباع للقادة والكُبراء، كأسوء تجسيد للظّلم والتّبعية العمياء:

(*) أنداد: شُركاء لله.

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ﴾.
(الزّخرف/ ٥٤)

﴿وَقالَ ٱلّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهٰذا ٱلقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرى إِذِ ٱلظّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ ٱلقَوْلَ يَقُولُ ٱلّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِلّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنّا مُؤْمِنِينَ * قالَ ٱلّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا لِلّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ ٱلهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُم بَلْ كُنتُم مُجْرِمِينَ * وَقالَ ٱلّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِلّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنا أَن نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنداداً وَأَسَرُّوا ٱلنَّدامَةَ لَمّا رَأَوُا ٱلعَذابَ وَجَعَلْنا ٱلأَغْلالَ فِي أَعْناقِ ٱلّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ * وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِن نَذِيرٍ إِلّا قالَ مُتْرَفُوها إِنّا بِما أُرْسِلْتُم بِهِ كافِرُونَ﴾. (سبأ/ ٣١ ـ ٣٤)

إنّ الحياة في حقيقتها وفي معظمها تابع ومتبوع.. إنّ التّبعية الفكرية والسّياسية والإجتماعية ظاهرة طبيعية في المجتمع البشري.

إنّ المذاهب والعقائد ومدارس الفقه والنّظريات السّياسية والأحزاب والتّنظيمات المختلفة لها قيادات وأئمّة ومراجع.. ولها أتباع وأنصار يتلقّون تلك العقائد والأفكار والمذاهب، ويعملون بالفتاوى والأوامر والتّوجيهات والمواقف العقيدية الصّادرة من

القيادات والمراجع .. والقادة والحكّام وزعماء الأحزاب ورؤساء العشائر... إلخ، بل ورؤساء العصابات ومنظّمات الجريمة السِّرِّية يصدرون أوامرهم وتعليماتهم إلى أتباعهم .. ويتلقّى الأتباع تلك الأوامر كمُسلّمات، بل وتحظى عند البعض بدرجة التّقديس والتّسامي فوق النّقد والمناقشة ..

إنّ الّذين يتّبعون أوامر قياداتهم ومراجعهم الفكرية والثّقافية ويقودونهم في طريق الجريمة والدّمار.. إنّما يُصادرون شخصيّاتهم وإراداتهم ويتحوّلون إلى جهاز مُنفِّذ لإرادة الطّاغوت الفكري أو السِّياسي أو الإجتماعي .. فيتحوّلون إلى أجهزة منفِّذة للإنحراف الفكري وممارسة الجريمة والعدوان .. إنّهم هم الّذين وصفهم القرآن بقوله:

﴿وَقالُوا رَبَّنا إنّا أطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأضَلُّونا ٱلسَّبِيلا﴾. (الأحزاب/ ٦٧)

إنّ ثقافة القرآن تدعو الإنسان لأن يُفكِّر في انتمائه لهذه العقيدة، أو لهذا المذهب، أو لذلك الكيان السِّياسي، أو القيادة الفكرية، أو السِّياسية، فلا يتّبع إلاّ القيادة الّتي تقوده في طريق الهدى والصّلاح .. ويدعو القرآن الإنسان إلى أن يُفكِّر ويفهم قبل أن يتقبّل، وأن لا يُنفِّذ أمراً أو يُطيع أحداً إلاّ بعد أن يتأكّد من صحّة الأوامر والتّعليمات، وعدم مخالفتها لما أراد الله سبحانه ..

فإنّ الكثير من قادة الأفكار والمذاهب والفتاوى، ضلّوا وأضلّوا ونشروا الفرقة والخلاف، وجلبوا الخراب والدّمار .. وكم

من القادة والسِّياسيين دمّروا شعوبهم وأتباعهم بأوامرهم المعبِّرة عن مطامعهم الشّخصية وعن أهوائهم ورعونتهم وحماقاتهم وتهوّرهم .. فكان الأتباع المُنفِّذون شركاء في الجريمة، وكانوا ضحايا لهذا الإتِّباع الأعمى .. أولئك هم الّذين وصفهم القرآن الكريم بقوله:

﴿أَلَمْ تَرَ إلى ٱلّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ ٱللهِ كُفْراً وَأحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ ٱلبَوارِ﴾. (إبراهيم/ ٢٨)

من صفات القائد والمسؤول
في ثقافة القرآن الكريم

المسؤولية أمانة، ولا يحملها إلّا الأقوياء والمؤهّلون لحملها بمواصفات قيادية خاصّة، الّذين يستطيعون أداءها بكامل مستلزمات الأداء.. والقادرون على تحدِّي ما يواجههم من عقبات ومشاكل وأزمات ومخاطر، وضغوط نفسية ومادِّية واجتماعية..

إنّ مَنْ يتصدّى لتحمّل المسؤولية، أي مسؤولية كانت، سواء في مجال السِّياسة والقيادة والإدارة، أو في مجال الفكر والعقيدة، أو التّربية والأُسرة... إلخ، عليه أن يعرف واجبه، وأن يكون مؤهّلاً لأداء الاستحقاق القيادي، وأن يكون مستعدّاً لمواجهة المشاكل والأزمات، وتحدِّي الضّغوط والحرب النّفسية.. وقادراً على التّفكير والتّخطيط وإدارة المواقف والأزمات..

إنّ القادة السِّياسيين والعقيديين، وقادة الجيوش وحماة الأمن يواجهون المواقف الصّعبة والتّحدِّيات الّتي قد تُكلِّف القائد، ومَنْ يتحمّل المسؤولية حياته أو تبعات سياسية واجتماعية ودعائية مضادّة قد تنهي دوره السِّياسي والقيادي..

إنّ القائد المُتصدِّي لتحمّل المسؤولية يجب أن يفهم: إنّ الحياة مسؤولية.. والمسؤولية في مستواها القيادي ومستوى

التّصدِّي: هي قرار.. وعليه أن يصنع القرار، لا سيّما في المواقف الصّعبة.. والقرار إرادة، فمَنْ يضعف ويصيبه الوهن القيادي أو يتخلّف عن صنع القرار الحازم والمناسب في الوقت المناسب، فهو فاقد لأهمّ خصائص وشرائط القيادي النّاجح.

إنّ القرآن يُخاطب النّبيّ يحيى عليه السلام بخطاب القوّة والصّلابة والإرادة لحمل الدّعوة، وتبليغ الرِّسالة والصّبر على الأذى..

يُخاطبه بقوله:

﴿يا يَحْيَى خُذِ ٱلكِتابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْناهُ ٱلحُكْمَ صَبِيّاً﴾.
(مريم/ ١٢)

واستجاب يحيى عليه السلام للخطاب، وكان مؤهّلاً، فحمل الكتاب والرِّسالة بقوّة، وقاومَ مؤامرات اليهود وحربهم ضدّه، وبلّغ الرِّسالة وقاوم الفساد والإنحراف حتّى استشهد..

إنّ القرآن يُثبِّت لنا هذا المبدأ.. مبدأ القوّة في حمل الرِّسالة إنّما يريد أن يُنشئ ويُكوِّن الجيل القيادي القوي، ذلك لأنّ الحياة صراع.. ولا يصمد فيها الضّعفاء..

وفي مورد آخر نقرأ في ثقافة القرآن الاهتمام بالقوّة والأمانة والنّزاهة.. فالأمانة شرط من شروط حمل المسؤولية والقيادة إلى جانب شرط القوّة والصّلابة.

﴿إِنَّ ٱللهَ يَأمُرُكُمْ أن تُؤدُّوا ٱلأماناتِ إلى أهْلِها وَإذا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنّاسِ أن تَحْكُمُوا بالعَدْلِ إنَّ ٱللهَ نِعِمّا يَعِظُكُم بِهِ إنّ ٱللهَ كانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾.
(النِّساء/ ٥٨)

إنّ القرآن يوحي بهذا النّصّ أنّ الحكم أمانة.. ومَنْ يحمل مسؤولية الحكم يجب أن يكون أميناً على كلِّ ما يتولاّه من مال ودماء وأعراض وكرامات... إلخ، فلا يستولي على أموال الأُمّة وثرواتها، ولا يستهين بدمائها وكراماتها، وأن يكون عادلاً في سياسته وتعامله..

ونقرأ بياناً يوحي بأنّ مَنْ يتحمّل المسؤولية يجب أن يكون قويّاً وأميناً.. نقرأ ذلك في قوله تعالى:

﴿قالَتْ إحْداهُما يا أَبَتِ ٱسْتأجِرْهُ إنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتأجَرْتَ ٱلقَوِيُّ ٱلأمِينُ﴾. (القصص/ ٢٥)

فالّذي يُستأجر ويُكلّف بأمرٍ يجب أن يكون قويّاً قادراً على حمله، أميناً عليه..

ويعرض لنا القرآن حوار النّبيّ يوسف عليه السلام مع ملك مصر.. حينما طلب منه أن يجعله مسؤولاً عن المال والإقتصاد في تلك البلاد الغنيّة الّتي حلّ يوسف مشكلتها وأزمتها الإقتصادية، وأنقذها من أزمة القحط والجوع الّتي حلّت بها..

يُعرِّف يوسف نفسه حين يعرض طلبه بقوله:

﴿ٱجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ ٱلأرْضِ إنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

(يوسف/ ٥٥)

يُثقِّفنا القرآن الكريم ويُثبِّت صفات أخرى بالإضافة إلى القوّة والأمانة صفة العلم والخبرة.. فيوسف النّبيّ عليه السلام إذ يطلب من ملك مصر أن يتحمّل المسؤولية في الدّولة.. يُعرِّف نفسه بصدقٍ

بأنّه: «حفيظٌ عَليمٌ».. وحفظ المسؤولية، والحفاظ على ما بيد المسؤول يحتاج إلى القوّة والأمانة.. ولمّا كان حفظ الأمانة وطبيعة المسؤولية هي مسؤولية المال والإقتصاد (خزائن الأرض)، فإنّها تحتاج إلى العلم والمعرفة.. كما تحتاج إلى الأمانة والقوّة في حفظها، لذلك قال: **﴿إنِّي حَفِيظٌ عَلِيم﴾**..

وفي موقع آخر يُخاطب القرآن الرّسول محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم بقوله:

﴿فاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أنْزَلَ ٱللهُ﴾. (المائدة/ ٤٨)

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أهْواءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ ما أنزَلَ ٱللهُ إلَيْكَ﴾. (المائدة/ ٤٩)

يدعو القرآن في هذا البيان إلى أن يكون الحكم بما أنزل الله من الحقّ والعدل والقانون، وأن لا يخضع لأهواء الطّامعين ومصالحهم ورغباتهم.

وهكذا يعرض لنا القرآن ثقافة قيادية من خلال التّجربة والحياة العملية، ويُشخِّص لنا خصائص وشرائط أساسية يجب توفّرها في القائد والمسؤول، هي:

١. القوّة والحزم في صنع القرار ومقاومة التّحدِّيات.

ونقرأ في منظومة القرآن الثّقافية التعبئة الرّوحية والنّفسية، وتقوية الإرادة لِمَنْ يضعف أو يستكين، أو تتسرّب إلى قلبه حالات الوهن والهزيمة النّفسية، أو يستجيب لحالات الإحباط والحرب النّفسية.

نقرأ ما نزل من القرآن الكريم بعد معركة أُحُد الّتي خسرها المسلمون وتسرّب الضّعف والوهن لبعض النّفوس، إذ قاسوا المسيرة بمعركة.. والقرآن يريد أن تستمرّ المسيرة ولاتتوقّف عند حالة تنتكس الأُمّة فيها، أو معركة تخسرها.

خاطبهم القرآن بقوله:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وأنتُمُ ٱلأعْلَوْنَ إن كُنتُم مُؤمِنِينَ * إن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾.

(آل عمران/ ١٣٩ ـ ١٤٠)

٢. الأمانة والنّزاهة والقدرة على حفظ المسؤولية من الضّياع.

٣. العلم والمعرفة بشؤون المسؤولية والقضايا الّتي يتصدّى القائد والمسؤول لإدارتها.

٤. التّخطيط وتوفير مستلزمات النّجاح للعمل المطلوب.

٥. الإستقامة السّلوكية والتّقوى ومخافة الله تعالى والإلتزام بالقانون.

ومَنْ لايملك القوّة والأمانة والنّزاهة والعلم والقدرة على حفظ المسؤولية فلا يحقّ له أن يتصدّى لقيادة الأُمّة وحمل المسؤولية، ولا يحقّ للأُمّة وللأتباع أن ترضى بقائد لاتتوفّر فيه تلك الشّروط والمواصفات.

٦. حُسْن التعامل مع الأتباع ومَنْ يقودهم ويدير شؤونهم..

يتحدّث القرآن عن تعامل القائد مع مَنْ يقودهم، فيتحدّث

عن صفة التّواضع والمحبّة والتّواصل والتّشاور بين القائد والأُمّة، ويهاجم القرآن صفة التّكبّر والطّغيان والتّسلّط في القائد على مَنْ يقودهم ويُدير شؤونهم، فيعرض لنا خلق الرّسول ﷺ النّموذج القدوة.. قال تعالى:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ ٱللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ ٱلقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلأمْرِ فإذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلى ٱللهِ إنّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

(آل عمران/ ١٥٩)

بل وينفي عن الرّسول ﷺ القهر والإكراه بقوله:

﴿نَحْنُ أعْلَمُ بِما يَقُولُونَ وَما أنتَ عَلَيْهِم بِجَبّارٍ فَذَكِّرْ بِالقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ﴾. (ق/ ٤٥)

ويصف الرّسول القائد بقوله:

﴿وإنّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. (القلم/ ٤)

﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِن أنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالمُؤْمِنِينَ رَؤوفٌ رَحِيمٌ﴾. (التّوبة/ ١٢٨)

إنّ هذا القائد ذو خلق عظيم، وهو حريص على مصالح الأُمّة، يؤذيه ما يؤذيكم، يشعر بشعوركم.. وليس علاقته بكم علاقة تسلّط وإكراه.. بل هي علاقة حبّ ورأفة ورحمة، واهتمام بكم..

وهكذا يُثبّت القرآن لنا ثقافة قيادية، وينمي روح المسؤولية والوعي القيادي.

الوفاء بالعهد والميثاق

ومن المبادئ الأساسية في ثقافة القرآن، وبناء الشّخصية الإسلامية، هو مبدأ التّثقيف على أهمّيّة الإلتزام الذّاتي .. الّذي من أبرز مصاديقه الوفاء بالعهد والميثاق.

إنّ مساحة واسعة من سلوك الإنسان ترتبط بالإلتزام.. والإلتزام يُنظِّمه القانون الإسلامي، كما تُنظِّمه الأخلاق والقانون الوضعي أيضاً..

إنّ العقود والمعاهدات والمواثيق القائمة بين أطرافها تُنظِّم المساحة الواسعة من سلوك الإنسان وعلاقاته الإقتصادية والمالية والسّياسية والإجتماعية ... إلخ، بل والعبادية أيضاً..

إنّ الإنسان يستطيع أن يدخل بإرادته واختياره طرفاً في أيٍّ من الالتزامات المشروعة.. وبهذا الاختيار والقرار الإرادي، يلزم الإنسان نفسه، ويصبح مُلزماً أمام الله سبحانه وتعالى، وأمام الطّرف الآخر، وأمام المجتمع والقضاء..

إنّ الإلزام والإلتزام وفقَ الشّريعة الإسلامية له مصدران، هما:

١ ـ الشّريعة الإسلامية: بما جاء فيها من عبادات وأحكام وقوانين لتنظيم المجتمع والعلاقات بين الأفراد والجماعات والدّول، ويتلخّص التّشريع الإلزامي في الشّريعة الإسلامية في مجالين أساسين هما:

أ ـ الإلزام التّحريمي: فالإنسان مُلزَم بترك ما حرّم الله عليه.. كشرب الخمر والإحتكار والرِّبا والغيبة والزِّنا والظّلم وقتل النفّس البريئة، والإستيلاء ظلماً على مال الغير ... إلخ.

ب ـ الإلزام الوجوبي: فالإنسان مُلزَم بأداء الواجبات الّتي فرضها الله عليه.. كالصّلاة والصّوم والجهاد والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، والوفاء بالعقود وبالعهد والميثاق، وبرّ الوالدين، والحفاظ على الأمن والنِّظام، وأداء الزّكاة، والدِّفاع عن الأوطان والمظلومين، وإطاعة الحاكم العادل ... إلخ.

٢ ـ أمّا المصدر الثّاني للإلتزام والإلزام: فهي الإرادة الشخصية، شريطة أن لا يُخالف هذا الإلزام والإلتزام أحكام الشّريعة الإسلامية وقِيَمها.. ومن أوضح مصاديق الإلتزام الّذاتي هي العقود..

إنّ العقود تُنظِّم معظم سلوك الإنسان الإجتماعي.. فعقد الزّواج، وما ارتبط به من شرائط، هو أساس بناء الأُسرة وتنظيم الحياة فيها..

إنّ الطّرفين بعد أن ينطقا بصيغة العقد عن إرادة ورضى، يصبحان مُلزمين بالآثار المُترتِّبة على هذا العقد.. ويُحاسبهما القانون والمجتمع على الإخلال به.. كما هما مسؤولان أمام الله سبحانه يوم الحساب. وأطراف العقد في البيع والشِّراء والإجارة والشّركة والمضاربة والدَّيْن وغيرها، مُلزمون بما ألزموا به أنفسهم، وعليهم الوفاء والأداء..

إنّ الوفاء بالعقود يتوقّف عليه الأمن والنِّظام الإجتماعي، وضبط السّلوك والعلاقات، واستقرار المجتمع.. وفي حال الإخلال بالعقود تحدث المشاكل والخلافات والإعتداء والجرائم، وتضيع الحقوق، وتختلّ موازين العدالة.. لذلك أكّد القرآن على وجوب الوفاء بالعقد.. قال تعالى:

﴿**يا أيُّها ٱلّذِينَ آمَنُوا أوْفُوا بِالعُقُود**﴾. (المائدة/ ١)

بل ويتحدّث الإمام عليّ بن موسى الرِّضا عليه السلام عن الإلزام والإلتزام في المذهب والرّأي الفقهي، فيقول: «**الزِمُوهم بما ألزَمُوا به أنفسهم**»[1]..

فعندما يكون في المسألة الإجتهادية أكثر من حُكْمٍ لدى الفقهاء والمجتهدين، فكلّ مَنْ يتّبع فقيهاً يكون ملزماً باجتهاد ذلك الفقيه وفتواه أمام الآخرين وأمام القضاء، وينفذ هذا الحكم بحقِّه، لأنّه ألزم نفسه باتِّباع هذا الفقيه، أو المجتهد..

ويُوضِّح الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام أنّ الإلزام ذاته ينطبق على أصحاب الدِّيانات.. فيقول: «**مَنْ دانَ بدينٍ ألزَمَتْهُ أحْكامه**»[2].

والعقود والمعاهدات تُنظِّم العلاقات بين الأفراد والجماعات

(١) الطّوسي، تهذيب الأحكام، ج ٨، ص ٥٨، رقم الحديث ١٩٠.
(٢) يراجع المصدر نفسه.

والدّول.. وتحفظ الأمن والسّلام العالمي.. واحترام العهد والعقد والميثاق الصّادر من الإنسان هو احترام لإرادته وذاته.. وفي حال انعدام الإلتزام بالعهود والمواثيق، فسينساق المجتمع البشري إلى الحروب والمشاكل والصِّراعات..

لذا نجد القرآن الكريم يؤكِّد على وجوب الوفاء بالعهد حتّى للّذين يختلف معهم المسلمون في العقيدة والمصالح.. وتلك أسمى درجات الإلتزام الأخلاقي والقانوني.. قال تعالى:

﴿**وأوْفُوا بِالعَهْدِ إنّ ٱلعَهْدَ كانَ مَسْؤُولاً**﴾. (الإسراء/ ٣٤)

﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللهِ إذا عاهَدْتُمْ**﴾. (النّحل/ ٩١)

﴿**وَٱلمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إذا عاهَدُوا**﴾. (البقرة/ ١٧٧)

﴿**فَأتِمُّوا إلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إلى مُدَّتِهِمْ**﴾. (التّوبة/ ٤)

وكما تشهد السّيرة النّبوية، فإنّ الرّسول صلى الله عليه وآله كان قد وقّع عدّة معاهدات مع اليهود ومع المشركين والنّصارى، فأوفى بعهده ووعده..

ويعتبر القرآن أنّ الوفاء بالعهد من صفات الله تعالى.. جاء ذلك في قوله سبحانه:

﴿**وَمَنْ أوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللهِ**﴾. (التّوبة/ ١١١)

﴿**وأوْفُوا بِعَهْدِي أُوْفِ بِعَهْدِكُمْ**﴾. (البقرة/ ٤٠)

بل ويدعو القرآن إلى الوفاء بالوعد، كما يدعو إلى الإلتزام

بالعهد والعقد.. وكما هو واضح فإنّ العقد والعهد ينشآن من قِبَل طرفين بإرادتهما، والوعد ينشأ من طرفٍ إلى طرفٍ آخر.. كالّذي يعد زوجته أو أبناءه أو شعبه بوعدٍ كالهديّة أو العمل النّافع لهم.. فيكون مسؤولاً عن الوفاء به..

جاء في الحديث الشّريف: «**المُؤْمِنُ إذا وَعَدَ وَفى**».

وقال الله سبحانه وتعالى يصف النّبيّ اسماعيل عليه السلام بقوله:

﴿**وَٱذْكُرْ فِي ٱلكِتابِ إسْماعِيلَ إنّه كانَ صادِقَ ٱلوَعْدِ وَكانَ رَسُولاً نَبِيّاً**﴾. (مريم/ ٥٤)

وهكذا يتسامى القرآن الكريم في ثقافته بالإنسان، وبالإرادة الإنسانية، فيجعل من الإنسان جهة مسؤولة عن العقد والعهد والميـثاق، وبذا ينتظم سـير المجتمع والعلاقات بين الشّعوب والدّول، وتقلّ المشاكل والنّزاعات.

وآخر دعوانا أن الحمدُ للهِ ربّ العالمين

الفهرس

كلمة المؤسّسة ٣

الحوار وانفتاح الأفق النّفسي ٥

الشّورى ثقافة وسلوك ٩

الغرور مرض أخلاقيّ ١٥

لاتحتقر أحداً ٢٤

الأنا وعبادة الذّات ٣٢

الطّاغوت والطّغيان ٣٩

القادة والأتباع ٤٧

من صفات القائد والمسؤول في ثقافة القرآن ٥٦

الوفاء بالعهد والميثاق ٦٢

الفهرس ٦٧